

(الخاتمة)

فى نهاية المطاف ، وبعد هذه السياحة الشائقة فى الأدب المهجرى ، والبحث فى نفوس المهجريين . أشكر الله سبحانه وتعالى على أن يسر لى كل ما قابلت من صعوبات إنه نعم المولى ونعم النصير .

وأود أن أركز على الحقائق التالية » التى تمثل نتائج البحث « :-

أ - التأمل روح الأدب المهجرى ، واستطاع المهجريون أن يعمقوا أفكارهم ، ويفسلفوا مشاعرهم . بما أضفوه على نتائجهم من هذه الروح المحلقة التى أكسبته قيمة فنية خصبة عالية .

ب - لم تدرس النزعة التأملية دراسة مستقلة من قبل . ومن هنا تأخذ هذه الدراسة مكانها بين الدراسات الجديدة التى تكشف عن ثراء لغتنا وتمكنها من احتواء كل المضامين الفنية فى يسر وبعد عن التكلفة والإغراب البعيد عن الصدق الفنى .

ج - تعرضت لدراسة التأمل دراسة فنية ، ووضحت أهم سمات التجربة التأملية واسترشدت بأراء النقاد الغربيين مثل روستريفور هاملتون ، وماثيو أرنولد وسدنى وكذلك أراء النقاد العرب المحدثين ومنهم عباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة لأنهما يمثلان تيارى التجديد فى الشعر الحديث ، وتطور مفهوم الأدب ووظيفته وتصويره للنفس أصدق تصوير .

د - بينت بواعث التأمل عند المهجريين على ضوء نظريات علم النفس الحديث واستنادا إلى الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية التى أحاطت بأدباء المهجر وتوصلت إلى أن البواعث تتمثل فى التكوين النفسى الذى هياهم لخوض تجاربهم ثم غربتهم وتوقهم إلى الانعتاق من القيود المادية والنفسية وكذلك طبيعتهم الشرقية الهادئة الميالة إلى معرفة الأسرار والولع بما وراء الطبيعة ، وكانت روحهم الدينية التى حملوها معهم من الشرق من أقوى البواعث على ترسيخ طبيعة التأمل فى نفوسهم ، والظروف الاجتماعية التى أحيطوا بها جعلتهم ينظرون للحياة نظرة حائرة تبحث عن تفسير لهذا التناقض الذى يبدو لهم وهم عاجزون عن إزاحة الستار عن غموضه ، وهم لم يتأملوا عن سذاجة وإنما كان لهم رصيدهم من الثقافة التى

أعطت لتأملاتهم عمقا ورحابة فقد تأثروا بفكر الشرق وفلسفة المتصوفين . ولم تغب عن أذهانهم روح أبى العلاء ولا أفكار ابن سينا . ولا سبحات ابن الفارض ولا فلسفة الخيام .

وكان لثقافتهم وإطلاعهم على الآداب الشرقية القديمة كآداب الفرس والهنود أثر لا ينكر في اتجاههم إلى تأمل عالمهم الداخلى والخارجى .

هـ - بحثت عن بذور التأمل في مسيرة الأدب العربى العريقة ووجدت أن أدبنا العربى لم يخل من ظاهرة التأمل في عصوره المتعاقبة وكان التيار التأملى ضعيفا في فترات منه أحيانا حيث لم يحظ باهتمام النقاد القدامى . وربما يرجع هذا إلى العداء التقليدى الذى كان شائعا بين الفلسفة والشعر ، وعدم اهتمام النقاد بتحليل الشعر الصوفى والوقوف على مقوماته الفنية .

ح - بينت الطرق التعبيرية الفنية التى لجأ إليها المهجريون في تأملهم الشعرى فالقصة الشعرية بما تتسم به من نضج فنى ، وبناء متماسك كانت إحدى وسائلهم التعبيرية .

وكذلك كان للمطولات الشعرية التى تشبه الملاحم أو الأساطير دور في إبراز تأملاتهم والرمز الفنى للتعبير عن المضمون كان من الوسائل التى عبروا من خلالها أيضا عن أفكارهم ومما ميز الرمز عندهم أنه كان واضحا لا غموض فيه .

والحوار الشعرى أضفى على القصيدة فى الشعر المهجرى الطابع المسرحى والقصصى وجعل إيقاعها أكثر تأثيرا فى النفس ، وكان من وسائلهم فى التعبير عن تأملاتهم .

ط - كانت التجربة الشعرية عندهم وإيدة الظروف التى دفعتهم إلى المعاناة إلى درجة الاحتراق أو الاستفراق فى مصدر الانفعال ، واتسمت أفكارهم بالعمق وربما التطرف والمغالاة أحيانا والألفاظ عندهم تخفى وراءها دلالات كثيرة وتوحى بعواطف ومعان متعددة غزيرة برغم سهولتها .

والصورة مبتكرة ملائمة للجو النفسى للتجربة . تنمو نموا عضويا حتى تصبح القصيدة كما وضحت فى تحليلى لبعض القصائد . بناء متماسكا . متناسقا معبرا

عن نفسية الأديب وشخصيته .

ى - تأثر المهجريون بالتراث العربى والإنسانى عامة وبالاداب الأجنبية وأثروا فيها كما جاء فى ديوان « المشرقيات لفكتور هوجو » الذى اتبع فيه التنوع الموسيقى الذى استحدثه المهجريون فى قصائدهم ومطولاتهم .

ق - نوهت بالتطور الذى حدث فى مواقف بعض الأدباء من قضايا التأمل ومظاهره مع بيان التطور الذى حدث فى أسلوب التأمل نفسه ، فقد تحول عند بعضهم من التأمل « الميتافيزيقى » إلى التأمل العلمى بأسلوب يجمع بين شغافية الحس الأدبى وحقائق العلم الحديث .

وكذلك حاولت البحث عن جذور القضية التى أردت توضيح موقفهم منها - والوقوف على أبعادها التاريخية والعلمية كلما أمكن ذلك . كذلك قمت بمقارنة آراء بعض أدباء المهجر وأشعارهم بأراء وأشعار أدباء أوروبا الذين عاصروا ازدهار الرومانسية فى القرن التاسع عشر .

وكذلك مقارنة أشعارهم بأشعار المتصوفين الذين استمدوا منهم بعض أفكارهم فى موضوع النفس ، والوجود وما يتصل بهما من قضايا وآراء .

ل - كان التسامح الدينى طابعا مميزا لهم . وبعضهم هاجم رجال الدين المسيحى فى قصصه وأشعاره وبعضهم أنشد القصائد فى مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام « محمد رسول الله » واعتقدوا بأن الله موجود فى كل الوجود وبعضهم أثرت فيه فكرة التثليث فى الدين المسيحى ومنهم من نادى بأن الأدب غاية الاتحاد بالله . ولا غاية له سوى ذلك ، ومما أخذته على بعضهم التهاون فى استعمال الألفاظ التى لا تليق فى مخاطبة الإله ، أو إطلاق بعض الأوصاف على المسميات العادية وفيها ما يسىء إلى الشعور الدينى الغيور .

م - لم ينصب التأمل فى الوجود عندهم على أصل الكون ؟ وكيف وجد ؟ مثلما تعرض الفلاسفة لهذه القضية واختلفوا حولها وردوا أصل العالم إلى الماء أو النار أو الهواء أو العدد أو الذرة أو إلى الوجود نفسه ، وإنما تأملوا مظاهر الوجود الكونى وحقيقة الوجود الإنسانى وبحثوا عن حقيقة سعادة الإنسان وأدهشهم تناقض القيم التى

تحولته من كل جانب وأمنوا بوحدة الوجود ومنهم من اعتقد فى ألوهية الإنسان .

ن - ابتعدوا فى بحثهم فى النفس عن مرحلة « البراجماتزم » أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى أمريكا وليم جيمز وجون ديوى وظلوا فى مرحلة « الأيديالزم ومرحلة الريالزم » والأولى تعنى بالبحث المثالى والثانية بالبحث الواقعى .

فقد بحثوا فى النفس بمعناها الفلسفى كما هى عند أفلاطون وابن سينا والغزالى وتوماس الاكروينى وقد خلط أغلبهم بين النفس والقلب والروح والعقل وأمن البعض بانفصال النفس عن الجسد وأمن بعضهم بالثنائية والآخرين يريون تحطيمها .

س - اتسع مفهوم الحب عندهم حتى صار منهاج حياتهم . واتخذوا من الطبيعة دستورهم فى الحب ومبادئهم ومثلهم العليا . ومنهم من اتخذ من الطبيعة الحية رمزا للهاء . ومنهم من تأمل الطبيعة الريفية وعالج مشاكلها .

وتجاوزوا فى تأملهم للطبيعة مرتبة الإشراف والاشتراف أو الاندماج إلى مرتبة الاتحاد أو الفناء الوجدانى واعتمدوا على التصوير الأسطورى والقصة الواقعية والرمزية الشعرية والقصة النثرية والمقالة القصيرة والكتاب الفلسفى الكامل فى موقفهم من الطبيعة واتحادهم بها حتى غالى بعضهم وتوهم أنه يستمد من الطبيعة دينه الذى يعتقدوه ويؤمن به .

ع - وتناقضوا فى موقفهم من الموت . فقد أمن بعضهم بأن الموت والحياة معترجان فلا حياة ولا موت وإنما هناك وجود دائم متجدد واعتقدوا أن ما يصيب الإنسان من مصائب فى حياته هو عقاب له على جرائم ارتكبها فى « حيوات سابقة » وسموا معتقدهم هذا تجدد الشخصية وأكده نعيمه فى روايته « اليوم الاخير » ومنهم من رحب بالموت تبرما بالحياة ومنهم من كرهه تعلقا بها ، ومنهم من أعطاه فلسفة اجتماعية ورأه ميدانا للمساواة .

ومراثيهم كانت متنفسا للتعبير عن قضاياهم الفلسفية التى تعلن عن معتقدهم فى الحياة والموت .

ف - وفى موقفهم من الحياة استخلصت أنهم مقبلون عليها برغم نصوصهم التى تهاجم الوجود والناس أحيانا . وهاجموا وجه الحياة الفاسد ولم يهربوا منها ، وثأروا على

الظلم لكنهم لم يشهروا سلاحا . بل كان جهادهم نواحا ، ومنهم من خاض غمار الحياة وعمل بالتجارة والصحافة . وتاه في الغابات وحمل على ظهره أمتعته ، ومنهم من فتح المصانع ولاقى ثراء ونجاحا . والشكوى من الحياة نغم قديم جديد لا نهائى ولكن المهجريين تميزوا بالشكوى التى تعمق مفهومنا للحياة وتكشف عن خباياها ، وتبحث عن سر السعادة .

* *

وأخيرا أرجو أن أكون قد حققت ما قصدت إليه من تجلية لقيمة من قيم أدبنا العربى عامة والأدب المهجرى خاصة . وهى ظاهرة التأمل التى تكشف عن أصالة الأديب وجدية أدبه وتنبيه عن أفاعه الإنسانية الرحبة التى تبعد به عن الضحالة والتكلف .

فالأدب ترجمان لأمانى الأمة وأحلامها . يسمو بأفكارها ، ويبث الحياة فى مشاعرها . وأمل أن يقبل الدارسون على أدبنا العربى بروح جادة تكشف عن كنوزه الثمينة وجواهره الأصيلة . وأن يقفوا على جوانب التأثير والتأثر بين أدبنا العربى والآداب الأخرى العالمية .

وأسأل الله التوفيق والعون ،

عليه نتوكل وبه نستعين .

(د . صابر عبد الدايم)

الزقازيق : التاسع من مارس ١٩٨١ م

إضاءة ختامية : هذا الكتاب كان فى صورته الأولى دراسة أعدت لنيل شهادة العالمية « الدكتوراه » وقد نوقشت هذه الرسالة فى ١٩٨١/٣/٩ وحصل المؤلف على الدكتوراه فى الآداب والنقد مع مرتبة الشرف الأولى . وتكونت لجنة المناقشة من :

أ . د / عبد اللطيف خليف نائب رئيس جامعة الأزهر السابق مشرفاً

أ . د / محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر السابق مناقشاً

وأ . د / طه مصطفى أبو كريشه وكيل كلية اللغة العربية بالقاهرة مناقشاً.